أحمد بن فضلان
الرسول السفير والسائح المرشد
كان حيّا في سنة 309هـ =921م

♦ أ.د. مصطفى جواد(*)

ارتـأت هيئـةُ تحرير (المورد) أن تعيد نشرَ مبحثٍ ذي أهميّـة تاريخيّة عن ابن فضلان، كان كتبه قبـل نحو سـتّة عقودٍ العلّامـةُ الجليلُ الدّكتور مصطفـى جـواد (1969-1906م)، بوصفه من أوائـل الباحثين العراقيّين الذين تناولوا حياة ابن فضلان وبعثته إلى بلاد الصّقالبة سـنة 309هـ، وبوصفـه، أيضاً، من الرّعيل الثّاني من الباحثين العرب، الذين أسـهموا خلال النّصف الثّاني من القـرن العشريـن، في تعريف جمهرة القـرّاء بأهميّة هـذا الرّحالة البغداديّ وفـرادة رحلته، بعد الكتابات التّعريفيّة المبكّرة لجيل الرّواد في القرن التّاسع عشر ومطلع القرن العشرين.
ظهـر هـذا المبحثُ أوّلَ مرّةٍ ضمن تراجم الشّـخصيّات العربيّة، في كتاب مشـترك التّأليف بعنوان «شـخصيّات القدر»، صدر ببغداد سنة 1963 عن مكتبة النّهضة، ونُشر بالمشاركة مع مؤسّسة فرانكلين للطّباعة والنّشر في نيويورك. وتناول فيه شخصيّةَ ابن فضلان، وما عُرف من معلومات محـدودة عن تاريـخ حياته، حفظها المصدر الأهمّ الذي نقل كثيراً مـن رحلته وخلّد ذكره قروناً، وهـو «معجم البلدان» لياقوت الحمويّ، كاشـفاً عن مهمّته الدبلوماسـيّة وأبعادها الحضاريّة، واهتمام المستشرقين والمستعربين الاسـتثنائيّ به، وقصّة اكتشاف مخطوطة رحلته الوحيدة في العالم، ونشرها بالعربية واللّغات الأخرى.

(*)من كتاب شخصيات القدر الشخصيات العربية للدكتور مصطفى يوسف مسگوني.

وعــلى الرّغم من مرور هذا الزّمن الطّويل على نشر المبحــث، إلّا أنّــه غير معروف- على مــا يبدو- لدى كثير من الدّارســين، مع ما انطوى عليه من أهميّة في أوان صــدوره، ومــن ذلــك تعريفه باقتباســات زكريــا بن محمّــد بن محمــود القزوينــيّ (المتوفى ســنة 682هــ) مــن نصوص رســالة ابن فضلان، التي لم يكن اقتباســها معروفاً لدى بعض المعنيّين بالرّحلة في العالم العربيّ حتّى وقت قريب. وكذلك ما كتبه عن جهود المســتعرب الشّــيخ محمّد مراد الرّمــزيّ، الذي أصدر بالعربيّة ســنة 1908 كتابا ضخما بمجلّديــن عنوانه «تلفيــق الأخبار وتلقيح الآثــار في وقائع قازان وبلغار وملــوك التّتار»، عن تاريخ البلاد التي قصدها ابن فضلان والأقوام التي ســكنتها عبر القــرون، جمع فيه معظــم المرويّات التي نقلها عنه الحمــويّ والقزوينيّ، وهو توثيقيّ كتاب مهــمّ هو الآخر، لــكلّ معنيّ بدراســات ابن فضلان، غير أنّ نــدرة طبعته- في ما يبدو- جعلته بعيداً عن تناول الباحثين العرب.

مدير التّحرير

(أحمد بن فضلان)[1]

الرســول الســفير والسائح المرشــد كان حياً في ســنة ٣٠٩ - 1920م هــو أحمــد بــن فضلان بن العباس بن راشــد بن حماد . كان من رجال الدين ومن حاشــية الخليفة العباسي جعفر المقتدر بالله وكان مــولى أبي علي محمد بن ســليمان الذي فتح مصر وشــتت آل طولون ودخلها ٢٢٩هــ وقد قُتل ســنة 304 ويســميه ياقوت الحمــوي «مولى أمير المؤمنين ثــم مولى محمد بن ســليمان» ولولا ورود اسم ابن فضلان في رحلته لكان من المجهولين .

كانــت ســفارة أحمــد بــن فضــلان الى بــلاد الصقالبــة «الســلاف» في آخر عــصر اليقظة الاولى للدولة العباسية البادئة أواخر عهد المعتمد على الله المنتهية بأواخر عهد المقتدر بالله ومنها سنة 309 التي ســافر فيها ابن فضــلان الى تلك البلاد النائية المجهولة.

وكانت بغــداد إذ ذاك حــاضرة الدنيــا وأعظم عاصمــة لاكــبر الــدول في العالمين كما انهــا بلغت من الاتســاع والحضارة والازدهــار أعلى الدرجات فكانــت الوفود تفــد إليها والحفــلات الكبرى تقام فيها والاستقبالات الرائعة تكون من خلالها وكانت الرســالة التي قدم بها رسول بلاد البلغار من قبل ملــك الصقالبة من الرســائل التي ســار ذكرها في التاريخ مسير الامثال، في كثرة السماع والاستعمال، وقد ذكرها ياقوت الحموي في معجم البلدان في مادة (اتل) و(باشــغرد) و(بلغار)و(خرز) و(خوارزم) و(روس) قــال: «انل بكسر أوله وثانيه ولال بوزن ابل: اســم نهر عظيم شــبيه بدجلــة في بلاد الخزر ويمــر ببلاد الــروس وبلغار وقيل اتــل قصبة بلاد الخزر والنهر مسمى بها.

يعنــي ياقــوت بنهر اتــل نهر وولغــا الحالي في روســية. ثم قال ياقوت: «قــرأت في كتاب أحمد بن فضــلان بــن العباس بن راشــد بن حماد رســول المقتدر الى بلاد الصقالبــة وهم أهل بلغار».. وقال في باشــغرد «ياشــغرد.. وبعضهم يقول باشجرد بالجيــم وبعضهم يقول باشــقرد بالقاف بلاد بين القســطنطينية وبلغار وكان المقتدر بالله قد أرسل أحمد بن فضــلان بن العباس بن راشــد بن حماد مــولى أمــير المؤمنين ثم مولى محمد بن ســلمان الى ملــك الصقالبــة، وكان قد أســلم هو وأهــل بلاده، ليفيض عليهم الخلع ويعلمهم الشرائع الاســلامية فحكــى جميع ما شــاهد منذ خرج مــن بغداد الى أن عاد وكان انفصاله في صفر ســنة 309». وقال

(1) رســالة ابن فضــلان طبعة الدكتور ســامي الدهان - معجم البلــدان لياقوت الحموي آثار البــلاد واخبار العباد لزكريــا القزوينــي تلفيق الاخبــار وتلقيح الآثــار في وقائع قــازان والبلغار وملوك التتار- تلخيص معجم الألقاب لابن الفوطي.

في بلغار: «بلغـار بالضمة والغـين المعجمة مدينة الصقالبة ضاربة في الشـمال شـديدة البرد لا يكاد الثلج يقلع عن أرضيها صيفا ولا شتاءً.

وقلمـا يـرى أهلهـا أرضـا ناشـفة، وبناؤهم بالخشـب وحـده وهـو أن يركبوا عـودا فوق عود ويسمروها بأوتاد من خشب أيضاً محكمة والفواكه والخيرات بأرضهم لا تنجب وبين اتل مدينة الخزر وبلغـار على طريق المفارز نحو شـهر ويصعد الى بلغـار في نهر اتـل نحو شـهرين وفي الحدود نحو عشريـن يوما ومـن بلغار الى اول حـد الروم نحو عـشر مراحل ومن بلغار الى كويابة (كييف) مدينة الـروس عشرون يوما ومن بلغار باشـجرد خمس وعشرون مرحلة.

كان ملك بلغار واهلها قد أسلموا في أيام المقتدر بالله وأرسلو الى بغداد رسولا يعرفون المقتدر ذلك ويسـألونه انفاذ من يعلمهم الصلـولات والشرائع لكن لم أقف على السـبب في اسلامهم وقرأت رسالة عملهـا أحمد بن فضلان ابن العباس بن راشـد بن حماد مولى محمد بن سـليمان رسول المقتدر بالله الى ملك الصقالبة ذكر فيها ما شـاهده منذ انفصل مـن بغـداد الى أن عـاد اليها قال فيهـا: «لما وصل كتاب آلموش بن سـلكي بلطـوار ملك الصقالبة الى أمير المؤمنين المقتدر بالله يسـأله فيه أن يبعث اليه من يفقهه في الدين ويعرفه شرائع الاسـلام ويبني له مسـجدا وينصب له منـبرا ليقيم عليه الدعوة في جميـع بلده واقطـار مملكته ويسـأله بناء حصن يتحصـن فيه من الملوك المخالفـين فأجيب الى ذلك وكان السفير له نذير الحرمي»..

وقال ابن فضلان في رحلته. «وكان الرسـول الى المقتـدر من صاحـب الصقالبة رجـل يقال له عبد الله بن باشـتو الخزرجي وتكيـت التركي وبارس الصقلابي». وقال: «وكان السفير له نذير الحرمي فندبـت أنا لقـراءة الكتاب عليه وتسـليم ما أهدي اليـه والاشراف على الفقهاء والمعلمين.. فرحلت من مدينة السلام يوم الخميس لاحدى عشرة ليلة خلت من صفر سنة تسع وثلاثمائة فأقمنا بالنهروان[2] يوما واحد ورحلنا مجدين حتى وافينا الدسكرة[3]»..

وقال محمـد مراد الرمـزي في كتابـه، (تلفيق الاخبـار وتلقيـح الآثـار في وقائع قـازان والبلغار وملوك التتـار): «قد ذكرنا سـابقا زمان دخولهم في حمى الاسـلام وسـببه فلنذكر الآن أحوالهم بعد تشرفهـم بشرافـة الايمان. اعلـم أنهم لمـا تشرفوا بشرف الايمان لسـبق العناية الالهية وتعلق ارادته السنية بسعادتهم.

وغرسـوا الشـجرة الطيبة الاسـلامية في وسط بسـتان مملكتهـم ورفعوا ألويـه الهدايـة وأعلام الشريعـة المحمديـة بجميـع همتهم وزينـوا بذلك كرسي سـلطتهم وكل ذلك في التاريخ المذكور هناك أعني بعد الثلائمائة – أيـام المقتدر بالله بقليل أو كثـير (فيه) أقـوال والظن الغالب هـو الأول والله أعلم . تيقنوا أن هذه الشجرة الطيبة لا بقاء لها ولا دوام بغير السـقي والتربة وسقيها انما يكون بماء الفضل والعرفان والعلم والايمان والفقه والوجدان الجـاري من نهـري السـنة والقرآن وهـم بمعزل عـن هذا لكونهـم قريبي العهد بالاسـلام والأيمان ولبعدهم عن بلاد الأسـلام وخصوصا دار الخلافة مدينة السلام.

(2) اراد بالنهـروان بلدة كانت على فـم قناة النهروان وان قـرب الموضـع المعـروف اليوم بكاسـل بوسـت في جنوب بعقوبة بينها وبين بغداد.

(3) يريـد دسـكرة الملـك وهـي تعريـب الاسـم الفارسي (دستجرد) وهي بلدة وحصن من آثار الفرس الساسانيين واتخذت عاصمة في أواخر عصر الدولة الساسـانية وآثارها تعرف اليوم بالزندان قرب شـهرابان وليس المراد دسكرة نهر الملك كما ظن صديقنا الدكتور سامي الدهان في تعليقه على رسالة ابن فضلان» ص 73».

أرسـل ملكهم آلموش خان بن سلكي خان رسولا الى معدن الفضل والعلم بغداد مدينة السلام ليبايع الخليفـة المقتدر باللـه العباسي وليظهـر متابعته لـه وطاعته اياه وويلتمس منه الفقهـاء والعلماء والمهندسـين والمعمـار والصناعـين ليوفقوهم على شـعائر الإسلام ويعلموهم أحكام الشريعة ومعالم الدين وليبينوا لهم سـمت القبلة عـلى وجه اليقين ويسـتأذنه في بناء السور في أطراف بلده ليتحصن بـه من الملـوك المخالفين لـه في الدين لمـا جرت به العادة من معاداة الكفرة اللئـام لمن دخل في حمى الاسـلام وقـد مرت محاربة الخزر أياهم لدخولهم في الاسـلام والايمان وإن لم يكن لـه فدخل في تلك البلدان فأجاب له المقتدر بالله بملتمسـه وسـؤله وتفضـل باسـعافه فيما رامـه وأمله وأرسـل اليه رسـوله وأصحابه الفقهـاء والعلماء والمهندسـين وسـائر أهـل الصناعـة المتجرين وكان الرسـول المعين له سوسـن الراسي والبـدر الحرمي[3] وضم اليهـم أحمد بـن فضلان بن العباس بن راشـد بن حمـاد البغدادي الكاتب وأمره بـان يكتب جميـع ما يشاهده ويعاينه في الطريق وفي بلاد البلغار وما يجاورها من سـائر البلاد عـن العجائب والغرائب وأجناس الامم وعوائد القبائل والسنتهم ودياناتهم وتعبداتهم وكيفـية أراضيهم ومساكنهم ومنازلهم وكيفيـة معايشـهم ومقـدار أطول الليـالي والايام وأقصرها وغير ذلك من وقت خروجه من بغداد إلى أن يدخلها راجعا .

ففعـل مـا أمـر به وألـف في ذلك رسـالة وهذه الرسـالة مشهورة برسالة ابن فضلان وهي عزيزة الوجـود لا تكاد توجد بل ادعـى الفاضل المرجاني أنهـا مفقودة بالكليـة مثل تاريـخ البلغار لقاضي البلغـار يعقوب بـن نعمان وقـال ان الأورباويين طلبوهمـا بنـشر الاعلانات مرارا مـن جميع الدنيا فلـم يضفروا بهما ولكن قوله هذا في تأريخ البلغار وان كان صحيحا ولكن في رسالة ابن فضلان يشبه أن يكـون غير صحيح لأن بعض مؤرخي روسـية صرح بنقلـه منها والظاهر أنه انما نقل ما نقال الا واسـطة إلا أن نقول ان الموجود عنـد الروسية انما هو ترجمتها والله سـبحانه أعلم» . . وذكر المؤرخ الروسي الذي أشـار اليه بكلمـة بعض قال :- وهو المـيرالاي ريتخ الـروسي صرح بنقله عن الرسـالة وعن شرحها للمحرر قرن وصرح بوجودها في دار الفنـون بقازان .... ثم قال الرمزي : واني لم أرهـا بعينـهـا وانما ظفـرت بعض التقـول منها كما ذكرنـا بعضها فيما مر نقلا عن القزويني وياقوت الحمـوي ، وقال ياقوت وقصـة ابن فضلان وانفاذ المقتـدر اياه الى بلغـار معروفة مشـهورة بأيدي النـاس منها عدة نسـخ «فأين ذهبت تلك النسـخ كلهـا؟ كيف وقد اثر الناس النقـل عنها فتجويز انعدامهـا بالكلية من قبيـل تجويز المحـال والله سـبحانه أعلـم» وقد صـدق محمد مـراد الرمزي لان بعـض الباحثـين الفضلاء قد عثر على نسـخة من نسـخ الرسـالة الفضلانية قال الدكتور سامي الدهان في مقدمـة الطبعة الجديدة لرسـالة أحمد بن فضلان المنشورة سنة 1959 : «في سنة 1924 أصدر ماركوارت دراسـة عن الرحالة في لينيك وفي هذه السـنة وقع الحدث الخطـير في المعلومات عن ابن فضلان اذ تسـلم المعهد الأسيوي للاستشراق في بشر بطرسبورغ ورقتين مصورتين من النسخة الخطيـة التي اكتشـفت في مدينة المشهد (طوس) من ايران ووصلت سائر الاوراق مصورة بعد عشر سـنوات إلى هذا المعهد فتغير سـير الدراسـات عن الرحلة بعد الحصول على النسخة وسنرى ما يكون من ذلـك . ومنذ عام ١٩٢٤ نشر مقال بالروسـية في التعريـف بهذه النسـخة الخطيـة الثمينة التي اكتشفت في خزانة المخطوطات.